الحجاج اللغوي في الحديث النبوي الشريف

-حجاجية الكلمة أنموذجا-

(مقاربة تداولية)

The argumentation linguistic in hadith of the prophet

–the word argumentative modal-

(approach pragmatic)

الدكتورة: فريدة رمضاني

أستاذة محاضرة ب

جامعة علي لونيسي - البليدة 2-

البريد tadaouli@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018/05/24 تاريخ القبول: 2019/02/17

الملخص:

يتناول هذا المقال الحجاج اللغوي في الحديث النبوي من خلال الكلمة وفقا للمقاربة التداولية، حيث يدور الموضوع حول كيفية تطبيق النظرية الحجاجية و تحليل لغة الرسول ﷺ، محاولين الوصول إلى كيفية حصول

الحجاج بالكلمة على المستوى الصوتي والصرفي و المعجمي، و كذا بيان التأثير الإقناعي لأحاديث الرسول ﷺ، وقد اقتصر هذا المقال على ذكر بعض النماذج التطبيقية التي تمكننا من الكشف عن خصوصيات الخطابات الحجاجية التي ينفرد بها الرسول ﷺ من حيث البيان.

الكلمات المفتاحية:

الحجاج اللغوي- الكلمة الحجاجية- التداولية- بلاغة الحديث النبوي.

الملخص بالإنجليزية:

This article deals the argumentation linguistic in hadith of the Prophet –the word argumentative modal- approach pragmatic. The aim of this research is to apply the theory of argumentation in order to analysis the language of the prophet peace be upon him and the problematic who we would like to ask is how the argumentation get the word on the phonetic and the morphologic and the semantic level, for that we will talk about the influence intuitive in sayings of the prophet peace be upon him, due to the importance of this subject in their disclosure and their privacy of his discourse argumentation.

Key word: argumentation linguistics –argumentative word - the pragmatic - rhetoric in hadith of Prophe

مقدمة:

يمثل الحجاج اللغوي في الحديث النبوي الشريف الذروة العليا من حيث الاهتمام في الدراسات البلاغة العربية والسمت العربي، و دون مبالغة تستأثر الكلمة الحجاجية في جميع مستوياتها الصوتية و الصرفية و المعجمية بكل الأبعاد التداولية للخطاب النبوي، إذ كان الرسول ﷺ:" يعلم كل ذلك على حقه؛ كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادله بحقائقها؛ فيخاطب كل قوم بلحنهم و على مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابا، وأسدهم لفظا، و أبينهم عبارة، و لم يعرف ذلك لغيره من العرب، و لو عرف لقد كانوا نقلوه و تحدثوا به و استفاظ فيهم."[1]

إن موضوع الكلمة الحجاجية في الحديث النبوي متشعبة الأطراف متعددة المناحي غير أننا سنقتصر في هذه المداخلة على الكلمة التي تحمل في طياتها الطابع الإقناعي البرهاني الذي يستهدف المتلقي بالتأثير على عقله وعواطفه، و نشير ههنا إلى خصوصية الحجاج اللغوي في الحديث النبوي الذي يختلف عن غيره من الخطابات الأخرى؛ فهو يتميز بكونه نصا شرعيا ثم:" هو لا ينبني على حجة منطقية عقلية خالصة وفق المفاهيم التي سادت في نظريات الحجاج الأرسطي و تطوراتها الحديثة... و لكن ينبني على متكأ سياقي يتعلق بعناصر سياقية تحكم عملية التواصل بين المرسل و المستقبل"[2]، كما أن الحجاج اللغوي الماثل في الحديث النبوي لا تتجسد فيه المغالطة التي عرفت بها البلاغة اليونانية فهو لا يبرح الصدق في الحجة و الإصابة في المقصد،

وعلى العموم فإن هذه الخصوصيات و غيرها لم تثن الباحثين من كشف النقاب عن أسرار الحجاج في الحديث النبوي الشريف و لعل هذه المداخلة هي إحدى البحوث التي تروم قراءة الكلمة الحجاجية النبوية.

1- حجاجية الكلمة في الحديث النبوي:

سنتناول في هذا المقال البحث عن حجاجية الكلمة في جميع صورها الدلالية لكن قبل ذلك لابد أن نشير ههنا إلى مفهومها بشقيه النحوي و البلاغي، إذ لا يخفى على السامع أن تشعب المشارب اللغوية هي ما ساعد على رسم الملامح المعجمية للكلمة في التراث العربي.

لقد كانت الكلمة أكثر القضايا اللغوية التي شغلت معظم العلماء في التراث النحوي حيث تعرض لتعريفها ابن الحاجب بقوله:" هي لفظ وضع لمعنى مفرد"[3] و يبدو أن هذا التعريف قد تواضع عليه بعض النحويين أمثال الزمخشري الذي ذهب بدوره إلى أن:" الكلمة هي اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع، و هي جنس تحته ثلاثة أنواع: الاسم، و الفعل، و الحرف"[4]، و هذا بالضبط ما حدده سبويه في معرض حديثه عن تقسيم الكلام فقال هو:" اسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس باسم و لا فعل"[5] و على الرغم من ذلك بقي تعريف الكلمة يراوح مكانه عند النحاة بدليل تقارب هذه المدلولات التي تقيدت بالمعنى النحوي للكلمة.

أما الكلمة في شقها البلاغي فقد ارتبطت عند علماء البلاغة العربية في جلها بالصور التعبيرية الجمالية المثيرة حيث" قدمت الدراسات اللغوية والأسلوبية

والبلاغية القرآنية للدرس البلاغي ما لم تقدمه أي دراسات أخرى. فقد تلقى البلاغيون الكلمة القرآنية بكثير من الانجذاب الروحي و العقلي لأنهم أدركوا ما تختزنه من عجيب التأليف، وبديع التصوير، و عمق التحليل في المستويات كلها"[6] و الأمر نفسه بالنسبة للكلمة في الحديث النبوي الشريف حيث هفت قلوب البلاغيين على اختلاف مذاهبهم الفكرية إلى العناية بكلام الرسول ﷺ عناية شديدة نظرا لفصاحته و بلاغة كلماته التي كان يختارها وفق مقتضى الحال و وفقا لأثرها الحجاجي المفعم بالتأثير و الإقناع.

2- حجاجية الكلمة على المستوى الصوتي:

تؤثر الكلمة الحجاجية من المنظور التداولي في المخاطب بل تهيمن عليه وتهز مشاعره و هذا على المستوى الصوتي؛ حيث ترسم الكلمة بحروفها مشاهد حية من خلال جرسها و قد ورد لفظ الصوت في المعجم والمقصود به :"الجرس والجمع أصوات و هو جنس لكل ما وقر في أذن السامع [7] و الصوت لغويا كما عرفه ابن جني هو" عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا، حتى بعرض له في الحلق و الفم و الشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا. و تختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها"[8] و هذا دليل قاطع على أن للحروف دلالات مخصوصة وصفات واضحة في البنية الصوتية للحديث النبوي المعروف بتناسب الحروف مع المعاني في الخطاب؛ و ليس الأمر بغريب إذ يمكننا أن نعزو ذلك إلى رهافة الحس عند العرب:" فهم يتأثرون أشد التأثر بما يسمعون، وللكلمة

قدسيتها، و هي تفعل فعلها إلى أبعد مدى، فيحاربون ويصالحون، ويضحون و يكرمون نتيجة سماع كلمات"،[9] و قد زاد اهتمامهم بالكلمة بعد نزول القرآن الكريم حيث:" رأوا حروفه في كلماته، و كلماته في جمله ألحانا لغوية رائعة، كأنها لائتلافها و تناسبها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، و أنه أمر لا قبل لهم به، و كأن ذلك أبين في عجزهم."[10]

إن جرس الصوت المنبعث من الكلمة يصور لنا التناغم العميق بين الحرف و المعنى فتتضافر الكلمات في السياق القولي لتوجه الخطاب النبوي وجهة حجاجية تذعن لها عقول السامعين، و ما لفت انتباهنا بهذا الخصوص هو ما أشار إليه "ابن الأثير" عن علاقة الصوت بالكلمة حيث قال:" فاعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر. فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة و وقار. والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي رماثة و لين أخلاق و لطافة مزاج. و لهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، و استلأموا سلاحهم، و تأهبوا للطراد، و ترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات، و قد تحلين بأصناف الحلي."[11]

إنه لمن الجلي أن الحديث النبوي يتضمن على المستوى الصوتي للكلمة الحجاجية طاقة تأثيرية:" إنها تمثل وحدة صوتية دلالية لها إيقاعها و جرسها الذاتي من جهة، و العام الذي يتسق مع ما حوله من إيقاعات أو وحدات

صوتية متعددة من جهة أخرى، مؤديا أغراضه في كل حال بالقدر الذي يتطلبه الموقف، و الحال، وأسلوب التعبير".[12]

لقد كان الرسول ﷺ أفصح العرب في الخطاب و أبلغهم في الحجاج وأبرعهم في المقاصد و الغايات؛ كان كلامه صلوات الله عليه كما قال الجاحظ:" هو الكلام الذي قل عدد حروفه، و كثر عدد معانيه، و جل عن الصنعة، و نزه عن التكلف.. استعمل المبسوط في موضع البسط، و المقصور في موضع القصر،... و لم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، و شيد بالتأييد، و يسر بالتوفيق. و هو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقول، وجمع له بين المهابة و الحلاوة، و بين حسن الإفهام، و قلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، و لا بارت له حجة، و لم يقم له خصم، و لا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصار، و لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق"[13]؛ كان الرسول ﷺ يستل من الأصوات الرخوة والمهموسة و المرققة و اللينة نعومة الكلمة وما تدل عليه من اللين و الرقة و اللطف، كما يستلهم من الأصوات المفخمة والشديدة والانفجارية ثقل وقوة الكلمة بما تعنيه من دلالات الشدة و القسوة والعنف، إنه الجمال المكنون بين الصوت و الكلمة و الأمثلة كثيرة في المدونة التي اخترناها:

عن أبي يحيى صهيب بن سنان ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:" عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ، وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ، إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خَيرًا لهُ، وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ، فكانتْ خَيرًا لهُ."[صحيح مسلم ج2/1364:2999] و قد أورد النووي[14] هذا الحديث في باب الصبر الذي حثنا عليه الله عز وجل في قوله تعالى:"يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ (الأعراف:2) والشاهد في الحديث هي كلمة سراء التي تدل على السرور و الفرح و الرخاء و الانبساط و هذا ما أوحت به الأصوات المتجاورة بدء بالسين المهموس الرخو الذي قال عنه :"العلايلي إنه: (للسعة) و البسط بلا تخصص،"[15] وقال الأرسوزي عنه: إنه للحركة والطلب"[16] و المعروف عن حرف السين أنه يتصف بالصفير و هو صوت يشبه صوت الطائر في اللغة و لذلك فإن:" صوته المتماسك النقي يوحي بإحساس لمسي بين النعومة و الملاسة، وبإحساس بصري من الانزلاق والامتداد، و بإحساس سمعي هو أقرب للصفير"[17] و كلها صفات دالة على الانبساط الحاصل في حالة السراء.

و حتى يؤكد لنا حسن عباس هذه الدلالات تتبع حرف السين في المعجم الوسيط الذي عثر فيه على مئتين واثنين و خمسين مصدرا جذرا تبدأ بحرف السين و هي تدل على معاني التحرك و المسير بما يتوافق مع الانزلاق في الصوت الدال على السعة و البسط، كما عثر على أحد عشر مصدرا للتعالي

بما يتوافق مع خاصية الامتداد إلى أعلى، و وجد أن ثماني عشرة مصدرا للرقة و اللين و الضعف بما يتوافق مع خاصية الرقة و السلاسة في صوت السين و بهذا يثبت لنا أن حرف السين في بداية المصادر:" هو أوحى ما يكون بالتحرك و المسير إذ بلغت نسبة هذه المعاني وحدها (23 %) بينما راوحت نسب بقية المعاني بين (4%،5،7%). مما يقطع بخاصية هذا الحرف في التحرك و الطلب و البسط كما أشار إلى ذلك كل من العلايلي و الأرسوزي."[18]

أما حرف الراء المجاور للسين فهو دال على التكرير و معناه في اللغة إعادة الشيء مرة بعد مرة أما في الاصطلاح فمعناه تحريك أو اضطراب رأس اللسان و ارتعاده عند النطق بالحرف خصوصا إذا كان ساكنا ومشددا [19] كما هي الحال في كلمة سراء التي يوحي فيها حرف الراء بتحرك الجسد أثناء السرور والانبساط ولا غرابة في الأمر إن وجدنا حرف الراء الذي يتوسط بين الشدة و الرخاوة في السريانية يشبه الرأس، و لئن كان بعض أصوات الحروف العربية يماثل عظام الإنسان في قساوتها، و بعضها يماثل عضلاته في قوتها ومرونتها، و بعضها الآخر يماثل لحمه في ليونته و طراوته، و غيرها يماثل أعصابه في حساسيتها و رهافتها و ما إلى ذلك من وظائف أعضاء البدن وخصائص الحروف، فإن صوت حرف الراء من أصوات الحروف هو أشبه ما يكون بالمفاصل من الجسد.[20]

ولذلك نرى اللغة العربية دون سائر اللغات قد اختارت أن يكون حرف الراء بما يتميز به من صفات القوة ضمن ألفاظها الدالة على أعضاء الجسد

وفي الحقيقة فإن حاجتنا إلى حرف الراء لا تقل عن حاجة الجسد للمفاصل فلولا صوت الراء لفقدت لغتنا الكثير من مرونتها و حيويتها و قدرتها الحركية و لفقدت بالتالي الكثير من رشاقتها، ومن مقومات ذوقها الأدبي الرفيع، فكما أن مفاصل الجسد تساعد أعضاءه على التحرك بمرونة في كل الاتجاهات، وعلى تكرار الحركة المرة بعد المرة، فإن حرف الراء بتمفصل صوته (ر.ر.را)، وبرشاقة طرف اللسان في أدائه، قد قدم للعربي الصور الصوتية المماثلة للصور المرئية التي فيها ترجيع و تكرار، و تأرجح ذات اليمين و ذات الشمال، و ذلك حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث كما قال ابن جني: فليس هناك أي حرف في الدنيا يستطيع صوته أن يؤدي بعض هذه الوظائف، فهو من المقومات الأساسية للغة العربية لا بل ما أحسب أن ثمة لغة يمكن أن تخلو منه.[21]

أما الألف التي تلت حرف الراء في كلمة سراء فمعناها في اللغة الانفتاح والانفراج [22] و هذا ما ينطبق تماما على الحقل الدلالي لكلمة سراء؛ و ما شد انتباهنا أثناء بحثنا عن دلالات صوت الألف هو العثور على معناها في السامية القديمة التي دل فيها على الثور، و شكلها يشبه صورة رأسه، أما رسمها في السريانية فيشبه صورة الإنسان وهذه من الصدف العجيبة في أن يلي الألف حرف الراء الذي كثر استعماله في اللغة العربية للدلالة على أعضاء الجسد مع أن:" الألف اللينة التي تقع في أواسط المصادر أو أواخرها، يقتصر تأثيرها في معانيها على إضفاء خاصية الامتداد عليها في المكان أو

الزمان. كما في (باب-سماء...)"[23]، و بخصوص الهمزة الواردة في آخر كلمة سراء:" فلا تأثير لها يذكر في معانيها و إن ظلت توحي للسامع بالبروز في مثل بؤبؤ."[24]

و من براعة حجاجية الكلمة في الحديث النبوي الشريف على المستوى الصوتي إتباع الرسول ﷺ كلمة سراء بكلمة شكر التي تتالت فيها الحروف الدالة على الانبساط و السعة و هي الحال التي يكون عليها المؤمن عند إصابته بالسراء حيث اشتركت الحروف الثلاث في صفة الانفتاح والاستيفال؛ أما الصفة الأولى فتدل في اللغة على الانفراج و هذا بالضبط ما يحصل بعد السرور و الفرح و هو مدعاة لشكر الله و حمده على النعم الواسعة التي تحصل للمؤمن في السراء، و أما الصفة الثانية المتمثلة في الاستيفال الذي يقصد به في اللغة الانخفاض[25] فهي حال الشاكر الذي يقابل النعمة بالتهليل و التسبيح و الحمد و الشكر.

إن صوت الشين المهموس الذي يشبه رسمه في السريانية صورة الشمس[26] يدل على التفشي و الانتشار وهي ما يتناسب مع شعور المؤمن بالسعادة والسرور في حالة الشكر و قد أحصى حسن عباس في المعجم: "مئتين وعشرة مصادر تبدأ بالشين، كان منها تسعة و أربعون مصدرا تدل معانيها على البعثرة و الانتشار والتشتت،"[27] أما حرف الكاف فتأثيره في معاني الألفاظ يختلف باختلاف موقعه منها[28] و هو عند العلايلي (للاحتكاك)،[29] وهذا واحد من معانيه إن هذا الحرف،" إذا لفظ صوته ممطوطا مخفوتا به قليلا

ومضغوطا عليه بعض الشيء، يحاكي صوت احتكاك الخشب بالخشب. ولعل العربي قد اقتبسه عفو الفطرة من هذا الحدث لإشعال النار بهذه الطريقة البدائية وصوته في هذه الحال يوحي بشيء من الخشونة و الحرارة والقوة والفعالية،"[30] و هذا ما نلمسه من الدلالات الايجابية القوية في التعبير عن الشكر.

أما بالنسبة لحرف الراء الذي جاء في آخر الكلمة فقد دل هو الآخر على الصفات ذاتها التي وجدناها في حرف الشين و الكاف، و لعل:" من غرائب هذا الحرف أيضا أنه يدخل في معظم الألفاظ التي تدل معانيها على منابع الحرارة الأصلية، التي كان العربي يتعامل معها في الطبيعة منها: أر النار أرا و أرثها (أوقدها)، أسعر النار(أشعلها)..."[31] و هو في هذا الموضع من كلمة شكر ينبأ عن الالتزام بتكرار الشكر في السراء.

3- حجاجية الكلمة على المستوى الصرفي:

كلنا يعلم أنه مثلما للكلمة ملامح صوتية في المستوى الأول، لها أيضا خصائص صرفية في المستوى الثاني، حيث تكون فيه عرضة للتصريف؛ والمراد به التغيير و التحويل و منه قيل أن الصرف في اللغة هو:" رد الشيء عن وجهه"[32] ومعناه تغييره و تحويله، و قد وردت الدلالة نفسها في الكثير من المواضع القرآنية و مثاله قوله عز وجل:" وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ

صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾، (التوبة:127) ففي أغلب السياقات التي وردت فيها كلمة صرف لم تبتعد فيها دلالاتها عن التحويل. أما الصرف في الاصطلاح فقد:" عبر عنه علماء الصرف بمصطلحات مختلفة فهو أحوال أبنية الكلم عند ابن الحاجب، و هو الأصول التي تعرف بها أبنية الكلم عند الأستراباذي، و هو يشمل في ما يشمل الماضي و المضارع و الأمر و اسم الفاعل و المفعول و الصفة المشبهة و أفعل التفضيل و المصدر و اسم الآلة."[33]

و ليس ثمة ريب في حجاجية الكلمة على المستوى الصرفي؛ إذ تعد الصيغة الصرفية لها أهم منافذ التأثير في الخطاب التداولي، بل يمكننا القول أنها القناة الطبيعية لممارسة الحجاج اللغوي ذلك أن الخطيب البارع ينتقي الصيغ مثلما ينتقي الألفاظ و الغاية هي الهيمنة على قلوب السامعين والسيطرة على مشاعرهم و هذا ما ذهب إليه "ابن الأثير" في معرض حديثه عن هذا الانتقاء إذ يقول:" اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء الأول منها اختيار الألفاظ المفردة و حكم ذلك حكم اللآلئ المبددة، فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم"[34]، و بهذا تتحول الصيغة الصرفية للكلمة من مجرد بنية صورية إلى رافد من روافد الحجاج.

و لا يفوتنا في هذا المقام أن نؤكد الأثر الحجاجي للصيغة الصرفية في الحقل التداولي؛ فالمتكلم من هذا المنظور يختار الصيغة التي تعبر عن مراده مراعيا في ذلك متطلبات السياق الذي تفطن نحاة اللغة العربية إلى قيمته

على المستوى الصرفي للكلمة و هذا منذ القديم؛ لقد عرفوا أن دلالة الكلمة لا تؤخذ من الصيغة الصرفية لوحدها بل أيضا من السياقات التي ترد فيها، و عليه فإن صيغة اسم الفاعل التي سنستشهد بها في مدونتنا لا تتصف بالدلالات نفسها نظرا لاختلاف مواضعها و السياقات التي وردت فيها:

عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال:" لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ ، إِلَّا مَكَّةَ ، وَالْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا. ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ." [صحيح البخاري ج1/452:1881]

قد وردت في الحديث النبوي –أعلاه- صيغة اسم الفاعل و هي من: "نماذج الوصف التي يدرجها المرسل في خطابه بوصفها حجة ليسوغ لنفسه إصدار الحكم الذي يريد، لتنبني النتيجة التي يرومها،"[35] ذلك أنه أحد المشتقات التي تجري: "مجرى الفعل في اللفظ و المعنى على حد تعبير ابن يعيش. فأما في اللفظ فإنه جار عليه في حركاته وسكناته...و أما الجريان في المعنى فهو حمل اسم الفاعل على الفعل، لأنه يدل كما يدل الفعل على الحدث و على الزمن."[36]

إن دلالة اسم الفاعل- في رأيينا- تتميز عن غيرها من الصيغ الأخرى بجريانها على الاسم و الفعل بشكل مشترك؛ فإذا ما نظرنا إليها كاسم دلت على الثبوت و إذا ما نظرنا إليها كفعل دلت على الحدوث و التجدد، و هذا ما أشار إليه "الجرجاني" بقوله:" إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير

أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، أما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء."[37]

و نظرا لأنه ليس ثمة فصل دقيق بين الدلالتين إلا السياق فإن "السامرائي" يفضل حل المعضلة الحاصلة في دلالة اسم الفاعل بقوله:" إنما يقع اسم الفاعل وسطا بين الفعل و الصفة المشبهة، فالفعل يدل على التجدد والحدوث، أما اسم الفاعل فهو أدوم و أثبت من الفعل ولكنه لا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبهة، فإن كلمة (قائم) أدوم و أثبت من (قام أو يقوم) ولكن ليس ثبوتها مثل ثبوت (طويل) أو (دميم) أو (قصير) فإنه يمكن الانفكاك عن القيام إلى الجلوس أو غيره، ولكن لا يمكن الانفكاك عن الطول أو الدمامة أو القصر."[38]

إن اسم الفاعل الوارد في الحديث النبوي و المتمثل في كلمة "صافين" هو حجة استعملها الرسول ﷺ لإقناع السامعين بأن الدجال لن يدخل إلى مكة و المدينة، و ليؤسس فعله الحجاجي وصف الملائكة بكلمة صافين موظفا اسم الفاعل الدال هنا على الثبوت، و الديمومة؛ ذلك أن اسم الفاعل الواقع في الجملة الاسمية يأتي في الغالب لدلالة على الدوام و الاستمرار،[39] ومثلما تبين فإن الرسول ﷺ أراد أن يحذرنا من فتنة الدجال التي تعد أعظم الفتن في تاريخ البشرية و هي إحدى أشراط الساعة الكبرى حيث يدعي الدجال الألوهية، فهو فتنة يمتحن بها الله عز وجل عباده حتى أنه يأمر السماء فتمطر، و الأرض فتنبت؛ ففي صحيح مسلم عن النواس بن سلمان،

أن النبي ﷺ قال:" فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ." [صحيح مسلم ج2/1342:2937]

إن ما قصده الرسول ﷺ من استعمال اسم الفاعل هو الحجاج فهو يحذرنا من مواجهة الدجال نظرا لفتنته العظيمة؛ فلا يجوز للمسلم أن يأتيه و إن كان واثقا من نفسه، لأنه قد يزعزع إيمانه ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال:" مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ، أو لِمَّا يَبْعَثُ بِهِ الشُّبُهَاتِ " [صحيح الجامع ج2/1080:6301] و مما يعصم المسلم من الدجال في ذلك الزمان هو اللجوء إلى مكة و المدينة و هذا ما أراد أن يقنعنا به الرسول ﷺ لأن الله عز وجل وكل ملائكة لحماية وحراسة الحرمين الشريفين و لذلك جاء الرسول ﷺ بصيغة اسم الفاعل لأن الملائكة لا يبرحون أماكنهم فهم موكلين بمهمة حماية المدينتين و عليه كانت الصيغة الصرفية للكلمة في الحديث النبوي الشريف حجة قوية ذات طاقة حجاجية مؤثرة، و في هذا السياق يقول إبراهيم أنيس عند تحديده للدلالة الصرفية أن:" هناك نوع من الدلالة يستمد عن طريق الصيغ و بنيتها"[40] و هو ما جاء

به الحديث النبوي الشريف حيث وظف الرسول ﷺ صيغة اسم الفاعل للدلالة على ضمان حماية الله لهذه الأرض الطيبة المباركة.

4- حجاجية الكلمة على المستوى المعجمي:

تتفاوت و تتباين حجاجية الكلمة المعجمية بحسب الدلالات المتولدة عنها؛ ذلك أن المعنى المعجمي للكلمة مرتبط ارتباطا وثيقا بالسياقات التي ترد فيها، و لذلك فإن المظاهر الحجاجية للكلمة لا تتجلى في التصورات والمعاني الموجودة في المعجم بقدر ما هي متعلقة بتأويل السامعين لها؛ و بهذا نقول أن الكلمة المعجمية تحمل في ثناياها دلالات متباينة و كثيرة؛ الأمر الذي ما تزال تبحث عنه النظرية الدلالية الجديدة في حقل علم النفس المعرفي الذي يعنى بالتمثلات الذهنية للكلمة المعجمية عند مستعملي اللغة:" و هي نظرية سمح بتطويرها التصور النفسي للمعرفة اللغوية في أنموذج تشومسكي"[41] الذي حاول الكشف عن الكفاءة اللغوية عند المتكلمين.

إن المعاني التي تحملها الكلمة المعجمية من المنظور الحجاجي هي متولدة من المقتضى الذي أولته الدراسات التداولية عناية شديدة، ذلك أن:" المتكلم ليس بإمكانه التلفظ بقول ما دون التسليم سلفا بوجود معطى مشترك بينه وبين مخاطبه، و أن لا يكون الإخبار غير منسجم مع تلك الخلفية المشتركة."[42] و عليه فإن معاني الكلمة غير منفصلة عن الأحداث الخارجة عنها فهي لا تؤول بمعزل عن السياق الذي يقدم الكثير من القرائن التي تفضي إلى فهم الخلفيات المتضمنة في الخطاب، و لذلك فإن الاقتضاء

يضطلع بدور حجاجي في اللغة وبتعبير "ديكرو" فإن الكلمة تنطوي في ذاتها على إشارة للطابع الحجاجي للمحمولات التي تشكلها[43] و من هذا الطرح نفهم أن الحجاج منغرس في ذات اللغة و أن كل كلمة تحمل بشكل جوهري وداخلي مؤشرات تلفظية تمنحها معناها و تفسر اقترانها بهذا المعنى دون ذاك ، فكل كلمة، على حد تعبير "موشلر" تحمل في صورتها مسارا لولوج دلالتها و دليلا لتأويلها.[44]

ولما كانت حجاجية الكلمة المعجمية قادرة على التأثير في نفوس المتلقين، فقد وردت كلمة صدقة في الكثير من المواضع القرآنية؛ كما أنها بلغت أقصى درجات الحجاج اللغوي في الحديث النبوي الشريف، و المراد بالصدقة هي ما يتصدق به على الفقراء و المساكين للتقرب إلى الله تعالى.

ففي القرآن الكريم جاءت كلمة صدقة للدلالة على المال و هذا في قوله عز وجل:"يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأَخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدًاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَىۡءٍ مِّمَّا

كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ (البقرة:271)

وجاءت دالة على الزكاة في قوله تعالى:" إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ (التوبة:60) و الدلالات التي وردت في القرآن الكريم كثيرة، أما في الحديث النبوي فلم تبتعد كثيرا عن تلك المعاني فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ" [صحيح مسلم ج2/1202:2588] و عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" مَا مِن مُسلم يَغرِسُ غَرْسًا أو يَزرَعُ زَرْعًا، فيأكُلُ مِنه طَيرٌ أو إنسَانٌ أو بهيْمَةٌ، إلا كان لهُ بهِ صَدقَةٌ" [صحيح مسلم ج2/728:1552] وعليه فإن المقتضى المعجمي لكلمة صدقة هي البرهان على حب الله و الرسول ﷺ فإنفاق المال دليل على الإيمان و طهارة النفس و صدق العبد.

أما عن حجاجية كلمة صدقة التي وردت في هذا الحديث الذي روي عن أبي ذر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:" يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ،

فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَ نَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنْ الضُّحَى" [صحيح مسلم ج1/326:720] فإنها لم تقتصر على المال مثلما سبق في غيرها من السياقات في الأحاديث السابقة بل توسعت دلالة كلمة صدقة لتشمل التسبيح و التهليل و التكبير و النهي عن المنكر والصلاة، و بهذا فإن حجاجية الكلمة هنا قد خرجت من المجال المادي المتعارف عليه إلى مجال أوسع و أرحب هو المجال المعنوي الذي يكفل للمسلم شكر الله تعالى بكل السبل المتاحة له و هذا يدخل في باب التيسير الذي شرعه الله في الاسلام، والملاحظ في الحديث أن الكلمة قد تكررت سبع مرات و الشاهد في الأمر أن أبواب الخير كثيرة وليست منحصرة في المال فقط بل تتعداه إلى أوجه أخرى، و لا شك أن التصدق بالمال أظهر من الحالات التي ورد ذكرها عن الصدقة.

ويجدر بنا في ختام هذه المداخلة أن نبين أن الكلمة الحجاجية في الحديث النبوي الشريف ليس لها قيمة على المستوى الصوتي و الصرفي و المعجمي وحسب بل هي على درجة من الدقة و الوضوح و الحجاجية على المستوى التركيبي الذي لم يتسن لنا دراسته لضيق المقام، و لا شك أن الحجاج اللغوي لا ينحصر في الكلمة غير أننا نعتبرها اللبنة الأساسية في الخطاب الحجاجي؛ و ذلك لجاذبيتها التداولية إذ هي قادرة على التأثير والإقناع تماما كالجملة، و من ثم كان اهتمامنا بها محض تمثيل لا غي

هوامش البحث:

[1]- الرافعي؛ مصطفى صادق،(1393هـ-1973م): إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ط9، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 283.

2-بلبع؛ عيد،(1429هـ-2008): مقدمة في نظرية البلاغة النبوية السياق و توجيه دلالة النص، ط1، دار الكتب، الرياض، ص 216.

3- الأستراباذي؛ الرضي،(1417هـ-1966م): شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، مج 1، تح: حسن بن ابراهيم الحفظي، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، المملكة العربية السعودية، ص 3.

4- ابن يعيش؛ موفق الدين،(1422هـ-2001م): شرح المفصل للزمخشري، ج 1، تح: ايميل يعقوب، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 70.

5- سبويه؛ عمرو بن عثمان، (1408هـ-1988م): الكتاب، ج 1، تح: عبد السلام محمد هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 12.

6- جمعة؛ حسين، (2002): في جمالية الكلمة(دراسة جمالية بلاغية نقدية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 10.

7- ينظر: ابن منظور؛ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (1994): لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة ص و ت.

8- ابن جني؛ أبو الفتح،(1993): الخصائص، ج 1، تح: حسن هنداوي، ط 2، دار القلم، دمشق، ص 6.

9- ياسوف؛ أحمد، (1419هـ-1999م): جمالية المفردة القرآنية، ط 2، دار المكتبي، دمشق، ص 75.

10- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

11- ابن الأثير؛ ضياء الدين،(د.ت): المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ج1، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، ط 2، دار نهضة مصر، القاهرة، ص 195.

12- العقدة؛ فتيحة، (1993): من الخصائص البلاغية و اللغوية في أسلوب الحديث الشريف، ط 1، مطبعة الأمانة، القاهرة، ص 120.

13- الجاحظ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر،(1418هـ-1998م): البيان و التبيين، ج2، تح: عبد السلام محمد هارون، ط 7، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 17.

14- النووي؛ يحيى بن شرف الدمشقي، (1423هـ-2002م): رياض الصالحين، ط1، دار ابن حزم، بيروت، ص 18.

15- أسعد؛ أحمد علي،(1406هـ-1985م): تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي، ط 3، دار السؤال، دمشق، ص 64.

16- عباس؛ حسن، (1998): خصائص الحروف العربية و معانيها، اتحاد الكتاب العرب، ص 110.

17- المرجع نفسه، ص 111.

18- المرجع نفسه، ص 113.

19- كمال الحلو؛ رحاب، (2009): قاموس الأصوات اللغوية تاريخ و تطور ولهجات عربي عربي، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، ص 55.

20- حسن عباس، خصائص الحروف العربية و معانيها، ص 83-84.

21- المرجع نفسه، ص 84.

22- كمال الحلو؛ رحاب: قاموس الأصوات اللغوية تاريخ و تطور و لهجات عربي عربي، ص 46.

23- عباس؛ حسن، خصائص الحروف العربية و معانيها، ص 97.

24- المرجع نفسه، ص 96.

25- المرجع نفسه، ص 42.

26- المرجع نفسه، ص 115.

27- المرجع نفسه، ص 115.

28- المرجع نفسه، ص 71.

29- أحمد علي؛ أسعد: تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي، ص 64.

30- عباس؛ حسن: خصائص الحروف العربية و معانيها، ص 69-70.

31- المرجع نفسه، ص 89.

32- ابن منظور: لسان العرب، مادة ص ر ف.

33- عبد الواحد؛ عبد الحميد، (2016): الكلمة في التراث اللساني العربي، ط1، عالم الكتب الحديث، بيروت، ص 145.

34- ابن الأثير؛ ضياء الدين،(د.ت): المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوى طبانة، القسم الأول، دار نهضة مصر، القاهرة، ص 163.

35- ابن ظافر الشهري؛ عبد الهادي، (2004): استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ص 488.

36- عبد الواحد؛ عبد الحميد: الكلمة في التراث اللساني العربي، ص 176-177.

37- الجرجاني؛ عبد القاهر، (2004): دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، ط 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 174.

38- السامرائي؛ فاضل صالح، (1428هـ-2007م): معاني الأبنية العربية، ط2، دار عمار، الأردن، ص 41-42.

39- الصابوني؛ محمد علي، (1402هـ-1981م): صفوة التفاسير، مج1، ط4، دار القرآن الكريم، بيروت، ص 277.

40- أنيس؛ إبراهيم، (1984): دلالة الألفاظ، ط5، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص 47.

41- غاليم؛ محمد،(1987): التوليد الدلالي في البلاغة و المعجم، ط1، دار توبقال، الدار البيضاء، ص 8.

42- الهمامي؛ ريم،(2013): الاقتضاء و انسجام الخطاب، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ص 39.

43 – Ducrot ; Oswald,(1980): les échelles argumentatives, les édition de minuit ,Paris ,p 16.

44- Moeschler ;Jacques:(1985) argumentation et conversation :éléments pour une analyse pragmatique du discours, Paris, Hatier, p 75.